المحور: رجال التصوف والطرق الصوفية.

المحاضرة– موقف العثمانيين من رجال التصوف:

رحب معظم المرابطين بالعثمانيين، فمنذ بداية العهد العثماني، كان العثمانيون يطمئنون إلى المرابطين أكثر من غيرهم، فيلجأون إليهم ويتبركون بهم ويطلعونهم على خططهم ونحو ذلك مما يدل على الثقة المتبادلة بين الطرفين، فهذا بيري رايس العثماني يذكر أنه هو وعمه قائد الغزوة، كمال رايس نزلا سنة 901هـ بمدينة بجاية ولجآ إلى زاوية الشيخ محمد التواتي الذي كان يبلغ من العمر مائة وعشرين سنة، وأن الشيخ قد أعطى كلا منهما رمزا يشير إلى مستقبله، فأعطى كمال رايس عودا صلبا علامة على قرب تخليه عن مهمته، وأعطى بيري رايس عودا طريا علامة على نضارة مستقبله، وظلا شتائين في بجاية حبا في الشيخ التواتي، بينما كانا يذهبان في الصيف للغزو والجهاد، وأنهما كان يحسان بالأمن في بجاية لحماية الشيخ لها[1].

وكان عروج وأخواه خير الدين والاسكندر يجوبون البحر الأبيض المتوسط، فينقلون اللاجئين الأندلسيين إلى شواطئ البلاد الإسلامية، وكانوا كثيرا ما ينزلون ببعض الشواطئ، مختفين يتصلون ببعض الشخصيات الدينية، فمن جملة من اتصل بعروج من هذه الشخصيات الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي، دفين ملیانة، الذي كان من ألد أعداء الملوك الزيانيين، وحكموا عليه بالإعدام، فصادف مرة أنه كان بقرية كرشتل على شواطئ البحر، شرقي وهران، بينها وبين شاطئ أرزيو وحوله مريدوه، فلمحه عروج فقصده وحدثه بواسطة ترجمانه، وقال له: (إنني أنوي أمرا إن سهّله الله فلا ننساك)[2].

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.464.

[2] ابن سحنون، **الثغر الجماني**، ص.19.

إن الذي يهمنا من هذه الرواية هو أن عروج كان يقصد بعض الشواطئ مختفيا، وكان يتصل بمن يتوسم فيهم الفائدة، وعموما، فالأتراك لم ينسوا أحمد بن يوسف، فكانوا يعينون على ركب الحج سنويا أحد أولاده، وقد بنوا له ضريحه ومسجده الحاليين بمليانة، كما عينوا أحد تلامذته نقيبا لأشراف الجزائر، وبقي أولاده يتوارثون هذه الخطة في عهد الأتراك، وهو الشيخ محمد الشريف الزهار، صاحب الضريح والمسجد بقصبة العاصمة[1].

وفي نفس السياق نذكر زواج أحمد باشا(1583-1593م) من ابنة أخت سيدي أحمد بن شاعة سيّد بني زروال والذي لم يتوقف عن تبجيل قدوم العثمانيين، الذي اعتبره إنقاذا حقيقيا، ولعل الشيخ عبد الكريم الفكون الذي ينتمي إلى عائلة متصوفة من أكثر الناس تأييدا للعثمانيين، إذ لم يتورع عن جمع الناس بقسنطينة والإعلان فيهم أن العثمانيين مسلمين أرسلهم الخليفة الذي يجب أن نبايعه وننضوي تحت حكمه[2].

ويبدو أن العثمانيين قد اتبعوا مع الشيخ محمد بن المغوفل نفس الطريقة التي اتبعوها مع الشيخ المليانى، وكان ابن المغوفل من مشاهير صلحاء الشلف في أوائل القرن العاشر الهجري حتى أعطيت له مشيخة الشلف، وشاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين حتى عرف الناس أن هناك سياسة عامة متبعة، فكثرت الأضرحة والقباب ودخلت الطرق الصوفية من المشرق ومن المغرب، وهكذا غرقت الجزائر في هذا العهد في التصوف والدروشة، فأصبح العلماء (الفقهاء) يتباهون بأخذ الطرق والأذكار والخرقة والسبحة والمصافحة، وأصبح الحكام يظهرون كل

---

[1] ابن سحنون، **الثغر الجماني**، ص.20.

[2] صحراوي، **مرجع سابق**، ص.90.

الاحترام والتبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا، أما العامة فلا تسأل عن أحوالها وعقائدها ومستواها الخلقي والاجتماعي[1].

وبالمقابل وقف بعض الأولياء والمرابطين ضد مظالم العثمانيين وتسلطهم، ويمكننا ذكر موقف الشيخ أحمد بن ملوكة الندرومي، الذي أخبر بالمجازر التي ارتكبها عروج في تلمسان فدعا عليه حتى لا يعود إلى المدينة، أما سيدي محمد الشريف البجائي المتوفى سنة 1522م، فقد اعتبر التدخل العثماني نازلة، وكان يلمح إلى رفضه إياه، و وضع محمد السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية الأتراك في نفس موقع المسيحيين، واعتبر العيش بالقرب منهم محرما، وكان يقول: ‹‹ الترك والنصارى في زمرة نقطعهم في مرة››[2].

كان العثمانيون يتقربون إلى المرابطين بشتى الوسائل كبناء المشاهد والزوايا والوقف عليها، وقد عرف عن الباي محمد الكبير أنه اعتنى ببناء مشهد الولي محمد بن عودة والولي أحمد بن يوسف، وهناك عدد من الباشاوات الذين كانوا يسلكون سياسة التقرب من المرابطين، وكان بايات قسنطينة يعفون عددا من الزوايا والأضرحة من دفع الضرائب، وقد عرف عن العثمانيين أيضا أنهم كانوا يكثرون من الهدايا والعطايا لرجال الدين عامة، وخصوصا المرابطين، إرضاء لهم وتكرما منهم، وكان بعض الباشاوات يمنحون في مناسبات معينة جزءا من جزية أهل الذمة إلى الأشراف والعلماء والمرابطين[3].

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.466-467.

[2] صحراوي، **مرجع سابق**، ص.88.

[3] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.469-471.